

مدن عالمية صنعها الأدباء وصنعتهم

من قاهرة محفوظ إلى طنجة بولز وشكري المدينة هي الإنسان

للمكان رهبته وقدسيتها وأفق الخالد عبر الأزمان، والمدن أمكنة مميزة لها عشقها ورونقها ونقاؤها وحواشدها وفوضاها وعبثيتها، ولا يستقيم الحديث عن المكان - المدينة بشوارعها وحرارتها الضيقة اللقوية دون إقحام ضروري للوجود الفيزيقي المادي والوجداني للبشر، وتدخل المدن في السرد الأدبي كمساحات خيالية أو بالأحرى تمثيلات للحقائق المادية والعاطفية لما يراه الكاتب وما يستشقه.

هذه القصة تلتقط التفاصيل الدقيقة لجغرافيا المدينة وشوارعها وحياتها الناس فيها عندما كانت الجغرافيا الاجتماعية للمدينة أكثر تعقيدا.

فإذا كانت لندن بجغرافيتها تظهر كمتاهة وضبابها المركب مناسباً لخيال الكاتب حول غموض الحياة الحديثة، فإن جيمس جويس الذي غادر مدينة ولده، دبلن، في عمر 22 سنة فقط ليعيش حياة المنفى في المراكز الحضرية العالمية: ترييستي، زيورخ، باريس، كانت عودته إلى "دبلن القذرة العزيرة" من خلال خياله حيث تخيل موطنه الأصلي كمكان لـ"دلالات شديدة"، ولكنه يظلها لاحقاً بمودة متزايدة كمكان للفرص الخيالية والعاطفية.

وحتى لا نذهب بعيداً عن الجغرافيا الأوروبية فقد اشتهرت مدينة أمستردام كعاصمة للكاتب العالميين منذ العصر الذهبي للجمهورية الهولندية في القرن السابع عشر، وهي التي فتحت أبوابها دائماً للكاتب الهارمين من الإضطهاد في مكان آخر، في الوقت الذي وصف فيه فيودور دوستوفسكي، سانت بيترسبورغ بأنها المدينة الأكثر تجريداً في العالم والنايضة بالحياة، كونها وفرت خلفية مكانية وإنسانية للعديد من الأعمال الأدبية الكلاسيكية والحديثة.

المغربي الحديث عن مدينة طنجة العالمية كما يسمونها المغاربة، لإعتبارات الجغرافيا حيث تأتي في رأس الخارطة على الضفة الشمالية للبحر المتوسط والمحيط الأطلسي، مدينة تجمع التاريخ والثقافة والسياسة، وهي معبر أبدى من الجنوب نحو الشمال ومكان استقرار لفنانين وأدباء عشقوها فعدوا القرن معها زوجاً لا طلاق بعده.

ولم تقلت طنجة المغربية من التصنيف أعلاه كمدينة أشرقت وتناثرت بكتابتها والمارين فوق أرضها، فهي المدينة الحية القابعة بين شاطئين وتأثير أربع ثقافات الأيبيرية والعربية والأمازيغية والأفريقية، فتحت زراعتها حاضنة كل اللغات والأدباء والفنانين والمثقفين والأفريقيين. طنجة بدورها اللقوية وعقباتها المتعبة وحاراتها الصاخبة، كانت دائماً تلك المرأة التي حافظت على رونقها وعبثها رغم مرور الأزمان وتواتر الأيام والشخص، وهي المرأة التي انعكست في كتابات وقصص من زارها ومكت بها من كتاب ومؤلفين سحرتهم بلبائها وناسها وهوائها وموسيقاها ومطبخها.

مع استكشاف التغييرات التي تحدث داخل المدينة نفسها فقد أعطى لها الأدب واقعا خيالياً أغناها وساهم في إبراز التغييرات الحضرية والاجتماعية فيها، حيث تخزنت حكايات طنجة الشجرية بين دفتي كتب بولز وشكري

بين الوافدين المغتربين بطنجة الفنان فرانسيس بيكون الأيرلندي الذي زار المدينة في خمسينات القرن الماضي، قال إن أعماله ليست إلا سعياً دؤوباً لإظهار نمط من أنماط الإحساس، فالتصوير يعكس بنية جهازنا العصبي الخاص وذلك من خلال إسقاطه على القماش، ليتأكد كلامه مع البورتريه بالباستيل، الذي اكتشفه الممثل الفرنسي جيرار دو سارتر، في يوليو 2010 تحت اسم "William S. Burroughs. Tanger" 54، وتابعته الناقدة الفنية مونا توماس لتكتشف أنه هو من رسمه للفنان المغربي أحمد يعقوبي وصديق الكاتب والموسيقي الأمريكي بول بولز، والذي رافقه خلال جولاته بالعالم.

بيكون درس الرسم للمغربي أحمد يعقوبي وهذا الأخير كان صديقاً حميماً لبول بولز الذي عرفه بالفنانة الأمريكية بيغي جونجهام، والتي بدورها فتحت له أبواب عرض لوحاته بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو الذي تزوج أديبة أمريكية زارت طنجة، هذا التداخل بين الرسم والقص والموسيقى والشعر لا يخرج عن تمثّل معين لمدينة طنجة بكل مفاتها ومسائرها،

محمد ماموني العلوي
صحافي مغربي

بعض المدن تفرض ذاتها على الكاتب بإصرار أيا كانت مرجعيته الثقافية والأيدولوجية واتساعها الجغرافي، وتجعله يستمد من عوالمها في عمله الروائي أو القصصي، لتحديد لحظة مهمة في تاريخ المجتمع المعنى وبنائه الثقافي والنفسي والاقتصادي والديني، فمن المدن تطورت جميع الحركات الاجتماعية والسياسية، لذا فهي منعطف ضروري للكاتب في تأثيرها فيه وتأثيرها به.

المدينة هي الزخم الرئيسي في الأدب، وتعكس العديد من الروايات والقصائد والقصص الطرق التي تولد بها المدن حالات الصدمة والابتهاج والاعتراب وإخفاء الهوية والارتباك أو التشويق، رأينا هذا مع القاهرة وحرارتها في الأدب المحفوظي، نسبة إلى نجيب محفوظ، وكيف استطاع هذا الأديب المصري أن يجعل من مدينته تنتمي إلى فكرة الذات المزعزعة ومسألة المركز الحضري الحديث باستغلال الهواشئ باطلانه وحرافيشه وعمرانه الممتد بين الخيال والواقع.

المدينة الملهمة

لقد ألهمت المدن العديد من أشكال الكتابة التي حاولت التعامل مع تحديات التفكير فيها وتمثيلها ليست كمنازل وشوارع ومحلات، وإنما كحياة تحمل كل أنات وضحكات وعبيرات وطموح وزلات وكبوات ونجاسات، من يعيش بداخل أحيائها، وقد كانت شخصيات روايات نجيب محفوظ تعبيراً عن هذا المشهد كل "رقاق المدق" و"خان الخليلي" و"القاهرة الجديدة" و"بين القصرين" و"السكرية" و"قصر الشوق".

مواضيع النظام والفوضى داخل المدن ظهرت في أشكال السرد المختلفة التي عكست المرحلة التاريخية للمدينة، من حكاية العصر الفيكتوري إلى صور ما بعد الحداثة في نيويورك وغيرها من مدن الشرق والغرب، فعندما ننظر إلى علاقة المدن وأديبها من طنجة إلى القاهرة ومن الصين إلى بيرو، من نيويورك إلى باريس، ومن لندن إلى كينشاسا، نجد هؤلاء المبدعين يبحثون بشكل حثيث عن الطرق والأساليب التي يمكن أن تجرب بها المدن الحديثة، سواء كانت عواصم أو مدن صفيح أو مدناً صناعية، الناس على تغيير طريقة تفكيرهم ونمط حياتهم. وعندما نتعمق جيداً في روايات نجيب محفوظ نجدته يتعامل مع مدينته باعتبارها أرضية اجتماعية وثقافية مقددة أفرزتها المدينة بكل أشكال علاقاتها ومؤسستها وتشخصها وقوانينها، وبالتالي فالذي دفع محفوظ كي ينجح إلى الرواية الاجتماعية من داخل حواري القاهرة، كما يرى نبيل راجب، هو أن البطل الحقيقي في رواية رقائق المدق الرواية لا تقوم إلا بدور الأبعاد الجسمانية للتكوين الاجتماعي والنفسي للمكان كمكون أساسي للمدينة.

والهامة تأثير الأدب على المدن ما ألهته جيمس جويس ذات مرة، أنه إذا كان مقدراً مدينة دبلن أن تختفي يوماً ما فحاشاً من على الأرض، فيمكن إعادة بنائها من كتابي يولييس، وهذا فعلاً واقع لا غبار عليه حيث أن



طنجة مدينة الأدباء والمبدعين

من نواح عدة باني أسطورة شكري، وسيلعب دوراً حاسماً في النقلة المرغوبة والموعودة من الاحتفالية والتبرج والفتوة الطنجاوية إلى نموذج آخر رغب فيه بتحسين وضعه وصورته مع نفسه ومجتمعه.

بول بولز كما أكد أحمد المديني في مؤلفه الجديد "السرد بين الكتابة والأهواء"، المتخصص في جمع تراث مكاتب طنجة وميراثها الشفوي، هو من كتب سيرة شكري الأولى بالإنجليزية لتلقاها شفويًا من رابوها وصاغها وشذبتها ونظمها. ارتبط اسم الكاتب محمد شكري بطنجة قبل وبعد شهرته، وكان مقره الأثير بمقهى سنترال بالسوق الداخل، عندما تحدث عنه مواطنه الناقد والكاتب أحمد المديني، ساردا، أنه يجلس في ركن المقهى يعرفه الداخل بطاولة فوقها عمود من الكتب مصفوفة فوق بعضها، وهو مستغرق في قراءته وأمامه كأس شاي على الطريقة الطنجاوية.

وعلى امتداد السبعينات ظل محمد شكري ملتقى العديد من الشخصيات تغد إلى طنجة، مغربية وكتاباً مشاهير، خاصة جان جيني، وميلر، وسيكتب لاحقاً مشاهدات وذكرات مهمما، ويصفه بأنه كان منسجماً وبرتاج لمرافقة هذا الصنف من الوافدين ممن يبحث عن أحشاء المدينة وعالمها السفلي حيث تمارس النزوات.



مدينة الفنانين العريقة

ظهر كل يوم، كان بول يتواجد "ببيته" ليستقبل سيلاً من الزوار الشباب الذين سافروا إلى طنجة للقاءه.

لقد كان حضوراً مكثفاً للكتاب الأجانب بفضاءات طنجة ومزاراتها وعوالمها الغامضة، منهم هيرمان ملفيل، ومارك توين، وغير تروود شتاين، وصموئيل بيكيت، وجان جينيه، وتينيسي وليامز، وجون هوبكنز، والرسم ماتيس والمخرج الإيطالي بيرونولوتشي، وقد أجابت الكاتبة الراحلة الطنجاوية راشيل مويال، بالنفي عن سؤال عما إذا كان الكتاب الأميركيون ينظرون بازدراء إلى السكان المحليين، وضربت مثال محمد شكري مع بول بولز، حيث قالت "لو لا بولز لما كان شكري كاتباً معروفاً اليوم".

وتعتبر راشيل التي توفيت مؤخراً، من رموز مدينة طنجة الثقافية، ويذكر الناقد خليل الدامون أنه لن ينسى صورته وهي تبكي على صديقها الراحل محمد شكري الذي لم تستسغ أنها ستفارقه يوماً من الأيام.

ورغم المال السيء الذي عرفته العلاقة بين بول بولز ومحمد شكري، جعل هذا الأخير يعترف بأنه "لا أشعر أنني متأثر جداً ببول بولز أو بأبيه. إنني متأثر باحترافته، أي باتخاذها الكتابة حرفة، ومتأثر برغبته القصوى في بلوغ الكمال في شأن عملية القصوى في بلوغ شيء في حياة بولز أهم من الكتابة".

يعد الكاتب والموسيقي الأمريكي بول بولز نزيل طنجة

عند بيكون واليعقوبي وبول بولز وغيرهم من الشخصيات المؤثرة لفضاءات هذا المكان بكل حمولاته التاريخية والسياسية والثقافية. على فترات من الزمن الطنجي الثقافي والفني كان حضور ترومان كابوت، ألن غنسيرغ، جون أورتز، وبوروز في مقدمة كتاب جيل الثقافة المضادة للرأسمالية الاستهلاكية في الستينات والسبعينات، كل منهم عبر عن تجربته الخاصة مع المخدرات والعالم الغرائبية والشذوذ الجنسي، إبداع هؤلاء خلخل الواقع اليومي، وكل قواعد النفاق المجتمعي تُعد رواية "الغداء العاري" لسوروز و"الخبز الحافي" لمحمد شكري أهم ما كتب في هذا الخصوص.

ما يجمع الواصلين إلى طنجة من فنانين تشكيليين وموسيقيين وكتاب وشعراء وموهوبين هو البحث عن نمط حياة مختلف غير ذلك الذي كانوا يعيشونه في كنف أسرهم وأماكن ولادتهم، وكان الجنس والفن والثقافة عناصر مرتبطة دائماً عند هؤلاء، وطنجة ليست فقط مدينة ممارسة الدعارة الجنسية وتهريب المخدرات، بل هي مكان للتواصل مع قوى الظلام ساهمت في إبراز مكانة من زارها من المبدعين العالميين.

بول بولز وشكري

زيارة بول بولز الأولى للمغرب كانت في العام 1933، عملاً بنصيحة مواطنه، الكاتبة غير تروود شتاين، ليستقر فيه منذ العام 1947 حتى وفاته سنة 1999، وكانت طنجة ملهمة بولز في روايته "دعه يسقط، ورواية "بيت العنكبوت". اعتبرت طنجة رابطاً وجدانياً كبيراً بين بول وجين بولز، رغم انفصالهما، لها هو هوبكنز يتحدث عنهما حيث كانا يقيمان بشقتين منفصلتين، إحداهما فوق الأخرى، بعمارة إتيسا الصغيرة رمادية اللون التي توجد خلف الفضيحة الأميركية. كانت تشبه مسكناً من طابقيين من دون سلم يربط بينهما.

يقول هوبكنز كان الزوجان يتواصلان عبر لعبة هاتفية كانت تزعم بهما عند بعضهما المكالمات بسيطة، وكان بولز قد تخلص من هاتفه لكي يتمكن من الاشتغال في هدوء. فاصبحت الطريقة الوحيدة لرؤيته هي أن تطرق بابه. من الخامسة تقريباً حتى السابعة، بعد